عبد المحسن بن محمد... بن غلبون الصُّوري وكتابة تاريخ الشِّعر في لبنان

اليوم(١)، أنصفت صور شاعرها وشعره، وبات لدينا ديوان مطبوع طباعة أنيقة لشاعر صوري عامليٍّ، شاعر عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريِّين، إضافة إلى دراسة جامعيَّة عنهما. وصرنا قادرين على التأكيد أن الشعر العربي الفصيح في عاملة، وفي لبنان، يعود إلى قرون خلت، وليس إلى قرن مضى، أو قرنين عبرا، كما يرى مؤرِّخون لا يرون في تأريخ الجمهورية اللبنانية سوى تاريخ محافظة من محافظاتها هي محافظة جبل لبنان، كأنَّهم لم يسمعوا بعديٍّ ابن الرِّقاع العاملي وبعبد المحسن الصُّوري وبسواهما من الشعراء العامليِّين!

عبد المحسن الصوري (٣٣٩ ـ ٤١٩ هـ/ ٩٥٠ ـ ١٠٢٨ م.) شاعر كبير من شعراء العربيَّة، يروى، في بيان ذلك، أنَّه التقى أبا العلاء المعري، وناظره، وقدَّم شهادة شعريَّة تفيد أنَّ المعرِّي وافقه على وجود جنَّةٍ ونار...، ويُروى، أيضاً، أنَّه قورن بالمتنبِّي في مجلس أبي العلاء. في ذلك المجلس، كان الشاعر أبو الفتيان بن حيُّوس يدافع عن الصُّوري، منشداً قصيدة له، فقال المعرِّي: هذه القصيدة لقصيرك، أي للصوري الذي كانت قصائده قصيرة، فردَّ «ابن حيُّوس»: هو أشعر من طويلك، يعني المتنبِّي الذي كان أبو العلاء شديد الإعجاب به.

لعلَّ القصيدة التي أنشدها ابن حيُّوس هي بائيَّة الصُّوري المشهورة التي عارضها شعراء كثيرون، وهي:

يا غزالاً، صاد قلبي بلحاظٍ فأصابا

---

(١) ألقيت هذه المقاربة في صور، في حفل أقيم بمناسبة صدور ديوان الشَّاعر ودراسة جامعية عنه وعن ديوانه.

بـــالـــذي ألـــهـــم تـــعـــ ذيـــبـــي ثـــنـــايـــاك الـــعـــذابـــا
والـــــذي ألـــــبـــــس خـــــدَّ يـــك مـــن الـــورد نـــقـــابـــا
والـــــــــذي أودع فـــــــي فـــيـــك مـــن الـــشَّـــهـــد شـــرابـــا
والـــذي صـــيَّـــر حـــظِّـــي مـــنـــك هـــجـــراً واجـــتـــنـــابـــا
مـــا الـــذي قـــالـــتـــه عـــيـــ ـنـــاك لـــقـــلـــبـــي فـــأجـــابـــا!؟

الصُّوري، كما يبدو، شاعر مجيد، ويقصد إلى الإجادة، يقول:

أطلت معانيها، وقصرت نظمها وأوردتها بكراً، وتصدر أيِّما

هو يقصد إذاً إلى قصر قصائده، وتكثيف معانيها، وابتكار صورها الغزيرة وإثارة المفارقات، مثل الغزال/ الصيَّاد وإيرادها بكراً/ وإصدارها أيِّما...، ووحدة بنائها وإحكام تماسكه، ومتانة تركيب عباراتها وسهولته في آن،... وتمثيلها الحياة في مدينة صور ومنطقتها، آنذاك، من مختلف النَّواحي: الثقافية والاجتماعيَّة والسياسيَّة، وهذا ما يجعلنا نرى أنَّ ديوانه المتضمِّن خمسة آلاف بيت شعر يمثِّل رؤية إلى الحياة، بمختلف نواحيها، في قرنٍ كامل.

من نماذج تمثيل شعره للحياة، أشير، وبقدر ما يسمح به المقام، إلى أنَّ له شعراً في نهر «ليطا»، أي نهر الليطاني، ما يلقي الضوء على الحياتين: العمرانيَّة والاجتماعيَّة، ومن ذلك قوله في مطلع قصيدة يصف بها إحدى النُّزهات على شاطئ «ليطا»:

لا يـــوم فـــي الـــدُّنـــيـــا كـــيـــومـــنـــا بـــشـــاطـــئ لـــيـــطـــا...

وأشير كذلك إلى أنه أنشد شعراً في رثاء الشيخ المفيد، ما يدلُّ على وجود علاقات، آنذاك، بين مدينة صور وبغداد والنجف الأشرف، وقد مدح عدداً من قادة الجيوش، منهم أبو الجيش بشارة، ما يلقي الضَّوء على تسمية جبل عامل ببلاد بشارة. ويدفع إلى إعادة النظر في الرأي القائل: إن هذه التسمية تعود إلى أيام صلاح الدين الأيوبي، وكان يتصل بقادة الفاطميين في الرملة، وقد مدحهم، ورغب في السَّفر إلى مصر، ولم يتح له ذلك.

في هذا الديوان، علاوة على ما ذكرنا من تصوير للحياة، تصوير لتجربة شخصية فريدة، فنراه شاعراً كبيراً، ولد في صور، ونشأ فيها، وعاش طوال حياته فيها، وقلَّما غادرها إلى أمكنة أخرى. وإن سافر فلمدَّة قصيرة، وإلى المدن القريبة كصيدا وطبرية والرملة ودمشق...

وفي مدينته عاش الفقر، ولم يملك أصدقاؤه له سوى النصح بالصَّبر، فقال:

وكم آمرٍ بالصَّبر لم يرَ لوعتي وما صنعت نار الأسى بين أحشائي
ومن أين لي صبرٌ، وفي كلِّ ساعةٍ أرى حسناتي في موازين أعدائي؟!

بقي يعيش فقيراً، عزيز النفس، معتدَّاً بها، ضنيناً بكرامته، يخشى أن ينال الوقوف على أبواب أولي الأمر من كرامته، فيفضِّل «القلَّة» لأنَّ نفسه تكثر بها، ويعتزُّ بالفقر إن شعر بأنَّ الغنى يؤخذ بالذِّلَّة، يقول:

عجبت من نفسي، ومن أنَّها كأنَّها تكثر بالقلَّة
تعتزُّ بالفقر متى استشعرت أنَّ الغنى يؤخذ بالذِّلَّة

وما جعله يعوذ بالأمل القصير، هو قصر نفوس الناس من حوله، في زمانه:

ومذ صارت نفوس الناس حولي قصاراً، عذتُ بالأمل القصير

❐❐❐